حركات التحرر في العالم الثالث ـ تعاني من امراض خاصة بها. وهذه الامراض المقاومية هي وراثية خبيثة، معظمها مستعص على العلاج، ويزداد فتكاً مع تقدم المصابين به في السن. ويمكن تشخيص ملامح هذه الامراض كما يلي:

O النـزق؛ او، ان صح التعبـير، مرض «الولدنـة». اذ يكـاد يبدو ان جيل المقاومة، بمعظمه، بتنظيماته، وزعاماته، وكوادره، وكل من لف لفهم، يتصرف ويعمل من خلال ما يمكن تسميته نفسية اتحـاد طلبـة، على ما يرافقهـا من «فهلوة» و«شطارة»، اضيفت اليها، مع مرور الوقت، المزايدات والمكابرة. ولقد كبرت المقاومة وتقدمت في السن، ولكن النفسية بقيت على حالها.

O «المهجرة» (نسبة الى المهجر)، الناجمة عن واقع التشتت الفلسطيني وخضوع الفلسطينيين لانماط حكم وانظمة مختلفة، تؤدي، بالتالي، الى طرق تفكير واداء متباينة. ولقد تعمقت هذه الخلافات مع مرور الوقت واتسع نطاقها وتأثيرها لتمس مفهوم «الوطن» من اساسه، فتشوهه، وتقزّمه، وتجعله حلماً بعيداً من الواقع، وغير قابل للتحقق في المستقبل المنظور. ومع تراكم المشاكل على طريق التحرير وازدياد طول الدرب، راح الوطن وقضاياه الملحة، وكل ما يتعلق بها او يمسها بصورة جوهرية، يبتعد تدريجياً ويبهت لونه في المخيلة. ومكان ذلك تحل هموم المهجر وامراض اللجوء، على ما تتسبب فيه من ازديـاد في جراثيم ضيق الافق، التي تفتك بالعقل والمنطق السليمين، فـ «تخربط» سلّم الاولويات، وتهشم القيم وتهمشها، وتقدم الشؤون الخاصة على العامة، وتجعل من صغار الامور كبارها، بحيث يتمحور العمل الوطني، بأسره، في تكتيكات آنية صغيرة، وتختفي الاستراتيجية ـ او تكاد.

وهـذه الخلفيـة، بأبعادها المختلفة، هي احد العوامل الرئيسة التي تسببت في حالة الضعف المزمن، التي تتحكم في العمل الفلسطيني عامة. فمنذ عشر سنوات واكثر، ونحن في وضع يمكن وصفه، في احسن الاحوال، بأنه بمثابة «مكانك عد»، في وقت يتحرك الخصوم والاعداء ويتقدمون، ولو على طريقتهم، في اكثر من مجال. ونتيجة لذلك، وبالمقارنة، يكون «مكانك عد»، بالنسبة الينا، عملياً، بمثابة «عد الى الوراء».

وهذا هو سر ازمة المقاومة المستعصية، وكنهها، وجوهرها؛ وما عدا ذلك أمور ثانوية.

كما ان هذه الازمة مرشحة لأن تدوم طويلاً، بل وتتفاقم وتؤدي الى الشلل، وربما الى الاختناق. اذ من الواضح ان من تعنيهم مثل هذه الامور «الصغيرة»، التي اشرنا اليها، هم قلة. فالاكثرية منهمكة بالقضايا «الكبيرة»، مثل اطلاق النظريات، واصدار البيانات الطنانة، وتنظيم «الحوارات» و... تكرار اخطاء الماضي.

ومن هذا المنـطلق، بدت لنا حمى «الحوارات» و«الوحدة»، التي اجتاحت الساحة الفلسطينية خلال الشهور الماضية، هامشية وغير مجدية، وظهرت الدورة الاخيرة للمجلس الوطني، قبل عقدها، شاحبة وعديمة الفائدة (ثم اتضح، بعد انتهائها، انها كانت ضارة). وفي اعتقادنا ان هذا كله تم نتيجة لشعور معظم الاطراف المعنية، ان لم يكن كلها، بأن الطريق امامها باتت مسدودة (ولا نعني، بالطبع، ان الطريق، بالمطلق، هي المسدودة، بل ان الطرق التي اختطتها منظمات المقاومة، كل لنفسها، هي التي باتت كذلك)، وان حمى النشاط المفاجىء هذه ليست الا من قبيل اثبات «نحن هنا». ولذلك، يبدو انه لن يمر وقت طويل الا وتعود الاوضاع الى ما كانت عليه، وكأنه لم تكن هنالك «حوارات» ولا «وحدة»، ولا يحزنون.

ولتوضيح ما قدمناه سالفاً، من جهة، وفي محاولة للمساهمة في اكتشاف معالم طريق جديدة، علها تكون ناجعة، من جهة اخرى، يبدو أن من الضروري القاء الضوء على بعض النواحي المهمة في تجربة المقاومة. ولا حاجة، كما لا يتسع المجال هنا، للعودة الى هذه التجربة منذ بداياتها؛ بل نكتفي بالمرحلة